

نقد العقل العربي

عند محمد عابد الجابري البيان انموذجا

د- عامر عبدزید

مدخل :

انشغل الفكر العربي المعاصر بالبحث عن ظروف المعرفة وشروطها من خلال محورين ، الأول :تاريخي يهتم بالتراث وتأويله، والثاني ، يهتم بالظروف الراهنة واتجاهاتها ، أي من خلال الأفكار والمناهج وارتباطها بالتحديث والبحث عن الوضوح والدقة في الرؤية والمنهج وفق منطق عقلاني لإحداث توازن بين الذات والأخر عبر مسيرة الفكر العربي وانشغاله بنفسه وأصوله وإعادة النظر بالتراث الفلسفي والعمل على تملكه وكشف المفاهيم المرتبطة به ، كالهوية والخصوصية وقد تم النظر إلى تلك الموضوعات الفلسفية بعد (هيجل) إعادة القراءة تاريخها لتحويل من ثم إلى استراتيجية لا موضوع لها وقد تجسد هذا من خلال توظيف مفاهيم أخرى إبستمولوجية⁽¹⁾ ، مثل العقلانية والواقع والموضوعية ، والإشكالية ، والقطيعة⁽²⁾

وقد اتخذ هذا المشروع وظيفة تتمثل في تأويل التراث وتملكه وكشف سلطاته المعرفية بما يسجد الانفتاح على الأخر ومشاغله في قراءة تراثه وطرحه المفاهيم ، مثل مفهوم التاريخ والايولوجيا وإعادة النظر في مفهوم الجدل ومبدأ الهوية والسلب

(1) إبستمولوجية : إن النسبة الغالبة من الترجمات آثرت الترجمة المعربة ، أي وضع لفظ الإبستمولوجيا Epistemology وهناك ترجمات آثرت رابطة البدل في ترجمة المصطلح ، أي تستخدم تعبير الإبستمولوجيا أو نظرية المعرفة (علم المعرفة - أو الإبستمولوجيا) أو مبحث المعرفة أو الإبستمولوجيا . انظر في هذا :رسول محمد رسول ، مفاهيم معاصرة ، مجلة أفاق عربية ، العدد 84 ، بغداد ، 1992 .

(2) عبد السلام بنعيد أعال ، الفكر الفلسفي في المغرب ، ط ، بيروت 1983 ، ص

والاختلاف عبر المشروع النقدي الذي جسده المشروع الغربي ، والذي يعيد المشروع المغربي المعاصر تمثله في معالجة حاضره وماضيه مستعينا بالأدوات النقدية الغربية وقد ظهر هذا جليا واضحا في الاتجاهات التي ظهرت في المغرب العربي المعاصر ، ويمكن تلمس اتجاهين رئيسيين كان لهما مكانتهما ، الأول : بمثله عبد الله العروي⁽³⁾ ، الذي دعا إلى الخضوع للفكر التاريخي عبر صيرورة الحقيقة وإيجابية الحدث التاريخي وتسلسل الأحداث ثم مسؤولية الأفراد ، داعيا إلى الخضوع إلى الفكر التاريخي والفصل بين الخصوصية والصالة ، فالأولى حركة متطورة فيما الأخرى سكونية متحجرة⁽⁴⁾ ، متخذة الدور التاريخي الغربي من عصر النهضة إلى الثورة الصناعية مرجعا وحيدا لتشييد مفاهيم الثورة لدى البلدان غير الأوربية⁽⁵⁾ . وفي هذا الصدد يقول : " لناخذ الإنسان العربي وعلى الخصوص المغربي انه يحمل في أعماقه كل ماضيه قبل الإسلامي والإسلامي والبربري والعربي والمغربي " أهم شيء إذن هو إن لا تغفل هذه الهوية المتعددة التي تكون هذا الكائن ومن ناحية أخرى يجب إن تفكر في الوحدة الممكنة بين هذه العناصر جميعا ، لكنها وحدة غير لاهوتية تترك لكل عنصر نصيبه من التمييز وتبع بالنسبة للمجموع حرية الحركة . وهذا يعمل على تجاوز التعدد عبر إضفاء وحدة إيديولوجية عليه "⁽⁶⁾

(3) عبد الله العروي ، مفكر مغربي اجتماعي له كتاب (الايدولوجيا العربية المعاصرة

(سنشير له فيما بعد .

(4) المرجع نفسه ، ص 12 .

(5) المرجع نفسه ، ص 12 .

(6) المرجع نفسه ، ص 11 ، انظر : عبد الله العروي (الادلوجة) ، الدار

البيضاء ، 1980 ، ص 25 .

إما الثاني " فيمثله الدكتور عابد الجابري الذي انتقد مفهوم العروي السابق وعمل على محاورة التراث بحيث يقربه ليجعله⁽⁷⁾ محاورا لنا وجعله معاصرا لنا متخذنا هذه استراتيجية في كتابه (من اجل رؤية تقدمية لبعض مشكلاتنا الفكرية والتربوية)⁽⁸⁾ ، وفيه يحدد من خلال مقارنة لقضايانا الفكرية ، ميادين ثلاثة هي التراث ، والفكر العالمي المعاصر ، والقضايا الراهنة السياسية والاجتماعية والقومية " أمكن القول بالنتيجة إن من الممكن اتخاذ احد هذه الميادين حقلا معرفيا حيث يكتسي كل موقف رؤية ومنهجيا بصورة إلية يطغي عليها طابع المطلق .. ومن هنا أيضا يمكن القول إن المشكل هو الذي يحتوي الفكر العربي وليس العكس⁽⁹⁾ . وعلى هذا النحو يقدم عابد الجابري تقسيمه للحركة الفكرية في المغرب على النحو الآتي :

المنشغلون بقضايا التراث يحتويهم التراث .

والمهتمون بقضايا الفكر الأوربي المعاصر الليبرالي يحتويهم ويملي عليهم مناهج معينة في معالجة المشاكل ومناقشتها .

والمستغرقون في القضايا الراهنة ، والسياسية والاجتماعية اوالتربوية أو القومية يحتويهم ، بدورهم ، مجال رؤاهم وطرائقهم في معالجة المشاكل على الصعيدين النظري والعملي⁽¹⁰⁾ .

وهكذا يخلص إلى نتيجة مفادها : إن المسألة في ظاهرها وباطنها نوع من الاستلاب ، فيما نسميه التراث يوجد هناك في فترة من فترات الماضي انه تراث لحضارة توقفت فيها جوانب التقدم والإبداع منذ زمن طويل فأصبح بعيدا عن واقع العصر الذي نعيش فيه . ويقدم تشخيصه لهذا الموقف يكون التراث يسبق الرؤية والمنهج ، ومثله النتيجة تسبق التحليل ، او على الأقل توجهه ضمنا .

(7) المرجع نفسه ، ص 12 .

(8) محمد عابد الجابري ، رؤية معاصرة ، ط 5 ، الدار البيضاء ، 1985 ، ص 6 .

(9) المرجع نفسه ، ص 6 .

(10) المرجع نفسه ، ص 7 .

وبعد هذه الرؤية يوضح موقفه بقوله : " نحن إذن في حاجة إلى مراجعة واقعنا وفي حاجة إلى رؤية جديدة شمولية واعية تتخطى الحواجز المصطنعة ، وتتجاوز الدوائر الوهمية ، وتنظر إلى الأجزاء في إطار الكل وتربط الحاضر بالماضي في اتجاه المستقبل رؤية يتحدد بها وفيها كل من الموقف والمنهج " (11) . ومن ثم يقدم عابد الجابري وصفا للمهتمين بالتراث ويقول : هناك خاصيتان أساسيتان هما عالمية وشمولية من ناحية ، وتاريخية من ناحية أخرى ثم يخلص الى نتيجة مفادها : إن هذه الرؤية جامدة إذ لا يمكنها تبني التراث كله لأنه ينتمي إلى الماضي ولا يمكن لعناصره المتشكلة في الماضي إن تتواجد كلها في الحاضر مثلها ليس من الضروري إن يكون حضورها في المستقبل هو حضورها نفسه في الحاضر وبناء عليه لا يمكن رفض التاريخ كله للسبب نفسه فهو ، شئنا أم كرهنا ، يقوم على أساس من مقدمات الحاضر ، وتغير الحاضر لا يعني البداية من الصفر (12) .

من كل هذا الذي قدمناه للتصور عابد الجابري في معالجته لموضوعه التراث والاصالة والمعاصرة نصل إلى واحدة من مقدمات الرؤية لديه إذ يقول إن هاتين الخاصيتين تصنعان نوعا من الخصوصية التاريخية حيث يعود بالتراث إلى مصدرين اثنين ، الأول : إنتاج الوضع الإيديولوجي للواقع الاجتماعي والاقتصادي في الحضارة الإسلامية ، والثاني : كان بتأثير الحضارات القديمة وانتقل إلى الإسلام " ومن ثم يخلص إلى القول إن الاستمرارية تحتل مكانا بارزا إلى جانب المكانة الرئيسة التي يتبوأها الإسلام بوصفه ديناً (13) . وبعد النقد الذي يوجهه إلى التيارات الثلاثة : المنهج السلفي والمنهج الاستشراقي والمنهج المادي التاريخي يصل إلى النتيجة الآتية بقوله : نحن نعتقد إن مثل هذه المحاولة لا يمكن إن تؤدي إلا إلى طريق مسدود أو إلى تكريس الانحطاط والجمود الذي يدعو إلى إخضاع المتغيرات

(11) المرجع نفسه ، ص 6 .

(12) المرجع نفسه ، ص 6 .

(13) المرجع نفسه ، ص 9 .

إلى الثوابت التي تحكمها⁽¹⁴⁾. ومن هنا يبدأ بإدخال مفاهيم ومنهج جديد في قراءته للتراث العربي الإسلامي بعد أن رفض ما قبلها ، إلا وهو المنهج البنيوي ، الذي يعطيه أهمية كبيرة بوصفه مهتما بالكل أكثر من اهتمامه بالأجزاء مما يعني بالنتيجة اكتسابه الشمول والعمق ، لكنه يعود ليؤكد ضرورة المزاوجة بين المنهج التاريخي والبنيوي ، قد ظهر هذا في كتابه (نحن والتراث) ، تكوين العقل العربي وبنية العقل العربي .

قسم في كتابه (نحن والتراث) الفكر الفلسفي الإسلامي إلى محتوين اثنين ، المحتوى الإيديولوجي من جهة والمحتوى المعرفي من جهة أخرى وهذا الآخر يمثل العلوم التي كانت سائدة وقد تم تجاوزها لهذا لم يبق إلا الجانب الإيديولوجي وفي هذا يقول : انه من الأفضل ألف مرة إن نحاول قراءة إيديولوجية تريد إن تكون واعية أكثر من إن نستمر في قراءة إيديولوجية واعية⁽¹⁵⁾ . ويتحقق هذا في ناحيتين : أولاً ناحية المنهج ، ثانياً ناحية الرؤية

أولاً - ويضع قواعد المنهج وهي :

ضرورة يعه مع الفهم التراثي للتراث⁽¹⁶⁾ ، موظفا مفهوما يعود إلى فلسفة العلوم لدى باشلار الذي يرى انفي تاريخ العلوم قفزات تجعل العلم ينتقل بفضلها إلى نظرية جديدة لا يمكن النظر إليها على أنها استمرار للفكر العلمي السابق لها . وبقدر ما تحقق هذه القفزات جده مطلقة في الفكر العلمي⁽¹⁷⁾ ، وقد نقل عابد الجابري

(14) المرجع نفسه ، ص 15 .

(15) محمد عابد الجابري ، نحن والتراث ، ط 1 ، بيروت ، 1980 .

(16) المرجع نفسه ، ص 18 .

(17) محمد الوقيدي ، فلسفة العلوم عند بلشار ، ط 1 ، بيروت ، 1980 ، ص

مفهوم القطيعة من مجاله التداولي إلى مجال تداولي آخر هو تاريخ الثقافة ليطالب بإحداث قطيعة مع نمط التفكير الذي كان سائدا منذ عصر الانحطاط .
والموضوعية في فصل الذات عن الموضوع والموضوع عن الذات وتطلب هذه الموضوعية تجنب قراءة المعنى قبل قراءة الألفاظ أي تجنب التصور الأسبق وهذا يتطلب نظرة شاملة وليس نظرة جزئية⁽¹⁸⁾ . وتظهر في ربط فكرة صاحب النص بمجالها التاريخي بكل إبعاده الإيديولوجية والثقافة مما يكسب الفكرة فهما تاريخها .
ثانيا - من ناحية الرؤية :

كل منهج يعبر عن رؤية صراحة أو ضمنا بنظر عابد الجابري ، فالرؤية تطور المنهج وتحدد له افقه وإبعاده ، والمنهج يغني الرؤية ويصححها ، وهناك منطلقات تستند القراءة إليها وتستمد منها التوجيه وهي :

وحدة الفكر، وحدة الإشكالية ، وحدة الفكر ، تعني وحدة الإشكالية ، فما يؤسس ويحدد وحدة فكر المرحلة ما هو وحدة الإشكالية لذلك نقول إشكالية النهضة لا (مشكل النهضة) لان ما شغل بال المفكرين العرب في عصر النهضة لم يكن مشكلا معينا بل جملة مشاكل مترابطة متداخلة . وهنا يخلص إلى القول إن الإشكالية هي النظرية التي لم تتوفر إمكانية صياغتها فهي توتر ونزوع نحو النظرية أي نحو الاستقراء الفكري "⁽¹⁹⁾

.تاريخية الفكر، (الحقل المعرفي ، والمضمون الإيديولوجي) أي ارتباطه بالواقع السياسي الاقتصادي الثقافي الذي انتخبه أو على الأقل الذي يتحرك فيه ، ويقول : إن المجال التاريخي وهو ما يمكن التعبير عنه بعمر الإشكالية انه الفترة التي تصطبغها نفس الإشكالية في تاريخ فلكر معين⁽²⁰⁾ .

(18) عابد الجابري ، نحن والتراث ، ص 20 .

(19) المرجع نفسه ، ص 32 .

(20) المرجع نفسه ، ص 31 .

(*) المرجع نفسه ، ص 22 .

ويرى إن المجال التاريخي لفكر معين ، يتحدد بشيئين اثنين :
الحقل المعرفي ، الذي يتحرك فيه هذا الفكر والذي يتكون من نوع واحد ومنسجم
من (المادة المعرفية) وبالتالي من الجهاز التفكيري : مفاهيم ، تصورات ،
منطلقات منهج ، رؤية .

المضمون الإيديولوجي ، الوظيفة الإيديولوجية السياسية الاجتماعية التي يعطيها
صاحب أو أصحاب ذلك الفكر لتلك المادة ، وهنا يفرق بين الحقل المعرفي
والمضمون الإيديولوجي (*) .

فالإشكالية النظرية التي تؤسس وحدة الفكر هي أساسا إشكالية معرفية أي هي
نتيجة تناقضات حقل معرفي معين وهي تظل قائمة ما دامت الشروط المادية
الابستمولوجية التي تؤسس الحقل المعرفي قائمة إما المضامين الإيديولوجية فهي لا
تخضع لتناقضات معرفية بل تجد أصلها في المرحلة التي يجتازها المجتمع من التطور .
وهنا يصل عابد الجابري إلى تقرير مسلمة هي إن الانتماء إلى الإشكالية نفسها وإلى
الحقل المعرفي نفسه لا يعني بالضرورة الانخراط في الإيديولوجيا . وهذا ما أفصح
عنه في كتابه (نحن والتراث) إما في كتابه (تكوين العقل العربي) و (بنية
العقل العربي) حيث طرح مشروعه النقدي (نقد العقل العربي) فقد كان
متواصلا في طرحه لما عرضنا له في كتابه (نحن و التراث) إذ يقول لقد شغل
الفلاسفة أنفسهم دوما بالبحث عن حقائق نهائية تقوم عليها المعرفة البشرية (21) .
لكن الابستمولوجيا لاتعد بوجود حقيقة نهائية بل على معرفة كيف تنمو المفاهيم
العقلية معتمدا على الجمع بين التحليل المنطقي النقدي والتكويني فالتحليل المنطقي
يهتم في دراسته على انتقال المعرفة من حالة دنيا من الصدق إلى حالة عليا منه ،
والتحليل التاريخي النقدي يدرس كيف تترجم المعرفة الواقع الموضوعي وهي
تحاول ان تربط معاني الواقع بالمتطورات التي تعطيها ، والواقع هو القاسم المشترك

(21) المرجع نفسه ص 192 .

إذ تسعى إلى كشف تميز الأحداث أو إلى توضيح الانقطاعات حينما يتصور الآخرون تطورا واستمرارية⁽²²⁾ .

وهنا تظهر أهمية العلاقة المكونة ولا سبيل إلى تعريف الوحدات إلا بعلاقات⁽²³⁾ ، تؤدي دورا في ظهور التكوين بوصفه تسلسلا احداثيا يسهم في إحداث تغير في البنية إذ يوجد ترابط ضروري بين التكوين والبنية فلا يتشكل أبدا إلا عن طريق الانتقال من بنية إلى أخرى⁽²⁴⁾ .

ويتعامل عابد الجابري مع التراث من خلال أفق بنائي ينظر إلى المعرفة بصورة شمولية جامعة يخضع لمنهج ورؤية في تناوله للعقول الثلاثة البيان والعرفان والبرهان⁽²⁵⁾ . فكل واحد منهما تحكمه رؤية ومنهج ، وفي تناوله لهما من حيث كونهما يشكلان ثقافة واحدة يحمل على رصد عقباتها من خلال تفكيك المنظومة وإرجاعها إلى أصولها ومقولاتها الأولية ، تهدف من خلال ذلك إلى تقديم قراءة عصرية للتراث ، بمعنى أنها قراءة تتجنب الوقوع تحت سلطة التراث بل تعمل على تفكيكه مما تحقق تحررنا من البطانة الوجدانية ، من الشحنة الانفعالية مما يجعلنا قادرين على التفكير عقلا نيا فيما نريد ، وهذا - كما يرى عابد الجابري 0 يعني التحرر من سلطة التراث الخطابية وهي ترجع إلى الطابع البنيوي للغة الكلام المحمل

(22) المرجع نفسه، ص 193 .

(23) المرجع نفسه ، ص 41 .

(24) المرجع نفسه ، ص 43 .

(25) وهذه الاصطلاحات سواء العرفان ، والبيان والبرهان هي من وضع عابد الجابري ويقابلها الاصطلاحان المتداولة في دائرة الثقافة العربية البلاغة والتصوف والعقل .

بشحنات من السحر والقداسة⁽²⁶⁾. إذ تعامل مع التراث العربي الإسلامي كبنية عمل على تفكيكها بإرجاعها إلى الأساس الأول الذي قامت عليه .
كان وراء القراءة التي يقترحها عابد الجابري للتراث مجموعة من الآليات الفكرية التي استعارها وكان لها اثر كبير وهي :
النظام المعرفي ، اللفظ ، الإشكالية ، والابستمولوجيا ، والقطيعة ، العقل ، والزوج الابستمولوجي والثقافة ، والزمن الثقافي .
وقد شكل هذا المشروع محاولة مهمة في مسعى يهدف إلى الخروج بدراسة تسبغ على التراث العلمية والتاريخية وتجاوز أنماط التفكير السائد .

يسعى عابد الجابري إلى تقديم تحليل للعقل البياني كونه جزءا من مشروعه في نقد العقل العربي - معتمدا التحليل العلمي لهذا العقل الذي تشكل من خلال معطيات الثقافة العربية ، التي بواسطتها يتم تحليل اذ تحمل معها التاريخ وتعكس الطموحات التي تعبر عن واقع العرب انذاك بما فيه من عوائق وتقدم ، ومن خلال تحليل هذه المنظومة المقرره والمقبولة في مدة تاريخية معينة ، والتي منحها الثقافة للمنتسبين إليها ، لهذا عندما يعطي تحليله لمصطلح (البيان) فانه يعرفه من خلال الاطار المرجعي الذي يحدد بواسطته علاقته مع العالم أي عصر التدوين بوصفه الاطار المرجعي للعقل العربي بشكل عام والبيان بشكل خاص اذ ان الخطاب البياني يهيمن فيه البيان معرفيا بوصفه فعلا وعقلا ونظاما .

- البيان ، في الاصل كفعل معرفي (هو الظهور والاطهار والفهم والافهام)⁽²⁷⁾ .

(26) محمد عابد الجابري ، رؤية عصرية للتراث العربي الإسلامي ، الموسم الثقافي ، الكويت ، (د.ت) ، ص 239 .

²⁷ . محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ، ط2، بيروت، 1987، ص556 .

- والبيان ، حقلا معرفيا ، هو عالم المعرفة الذي تبنيه العلوم العربية والاسلامية (الخالصة) علوم اللغة وعلوم الدين .
- وتتركز السادسة النظرية داخله على وضع قوانين لتفسير الخطاب المبين أي الخطاب القرآني أساسا .
- البيان نظاما معرفيا (هو جملة من المبادئ والمفاهيم والإجراءات التي تعطي لعالم المعرفة ذاك بنهته اللاشعورية والمحددات والسلطات التي تحكم المتلقي وتوجهه للمعرفة المنتج لها داخل الحقل المعرفي البياني دون إن يشعر بها أو يختارها .⁽²⁸⁾

إن عابد الجابري في تحليله للعقل العربي كان يعمل على الكشف عن القيم الايستمولوجية وأثرها في بنية الفكر بهدف توجيه النقد الذي هو احد مقومات العقلانية الجديدة التي اخذت بمنطق تطور العلم وديناميته وعلى هذا الاساس اختار اللغة في حاجته البيانية فاللغة ليست اداة وحسب ولا محتوى وحسب بل هي بمعنى [أخر ذلك] (القالب) الذي تفصل المعرفة على اساسه (تماما كما يفصل الخياط الثوب على اساس قالب) فهي اذن ترسم الحدود وتخط المحيط لكل معرفة⁽²⁹⁾ فهذا التحديد لدور اللغة مرده النظر إلى العلم كما هو وان يتعلم من تطور العلم ويقبل الخضوع والتهيؤ الطويل ، بما يمكنه من تقلي اشكالية عصره⁽³⁰⁾ ، فالالتزام بمنطق العلم جملة واعيا لدور اللغة بوصفها (منظومة لغوية تؤثر في طريقة رؤية اهلها للعالم وفي كيفية مفصلتهم له وبالتالي في طريقة تفكيرهم)⁽³¹⁾ مما جعله

²⁸ . المرجع نفسه ، ص 556 .

²⁹ . محمد عابد الجابري ، تكوين العقل العربي ، ص 77 .

³⁰ . محمد الوقيدي ، نظرية المعرفة عند غاسون باشلار ، ص 91 .

³¹ . محمد عابد الجابري ، تكوين العقل العربي ، ص 77 .

يفهم دور اللغة في تحديد القدوة والفكرية للناطقين بها وفي تحديد امكانية العقل وهو بهذا يأخذ عن هرذر⁽³²⁾⁽³³⁾ رابطا بين خصائص اللغة وخصائص الامة التي تتكلمها وان كل امة تتكلم كما تفكر وتفكر كما تتكلم ، كل امة تخزن في لغتها تجاربها من عناصر الصواب والخطا إلى الاجيال الناشئة ، ولغرض كشف تلك الاخطاء ، فانه يركز على الجانب الباطني للعمل العلمي من خلال استخدامه النقد الابدستمولوجي اذ إن الأمر لا يقتصر على تلك المظاهر الخفية فقط بل يتعداه إلى ما كان له اثر خفي في مسيرة البحث والتطور الذي كان من نتائج العقل العربي البياني ، لهذا حملت دراسته عنوان (الاعرابي صانع العالم العربي)⁽³⁴⁾ يعني هذا كشفه للعائق الذي رافق عصر التدوين وعملية البحث البيانيه . . اذ تبرز العوائق الابدستمولوجية في الشروط النفسية للمعرفة وتبعا لضرورتها الوظيفية ، بمجرد قيام علاقة بين الذات والموضوع ، والمعرفة العلمية اذن هي التي تنتج بذاتها عوائقها الابدستمولوجية⁽³⁵⁾ عابد الجابري يوظف هذا المفهوم في حقل اللغة وحقل الفقه والاصول وعلم الكلام وعلى هذا الاساس يكشف عن إن اللغة لها خاصيتان اساسيتان هما تاريخيتها وطبيعتها الحسية . وعلى هذا الاساس يدرس المنهج والرؤية التي صاحبت جمع اللغة فعلى مستوى المنهج الذي اتخذ نمطين : الأول وهو ((

³² . هرذر ، مفكر الماني (1744-1803) من الرواد الاوائل في دراسة علاقة اللغة

والفكر وتحديد لها بل الرائد الأول للنظرية التي تعزو دورا اساسا للغة ، انظر محمد عابد

الجابري ، تكوين العقل العربي ، ص77.

³³ . المرجع نفسه ، ص76.

³⁴ . المرجع نفسه ، ص75 و88 .

³⁵ . محمد الوقيدي ، نظرية المعرفة عند غاسون باشلار ، ص110 .

الاشتقاق الصناعي الذي يكرس من اللفظ إلى المعنى ((من ضَرَبَ - يَضْرَبُ (إما النط الثاني وهو ((الرواية عن الاعراب من قبائل متعددة مما يجعل للشيء الواحد اسماء مختلفة)) ، والنتيجة هو (فائض في الالفاظ بالنسبة للمعنى))⁽³⁶⁾ ، وهو مما يجعلها لا تاريخية لانها تعلق على التاريخ لاستجيب لمنطق التطور ، فكثرة المرادفات موده إلى الاشتقاق الصناعي على طريقة الخليل ومن ناحية أخرى فان موده كان إلى السماع مما ادى إلى تضخم مع فقر في اللغة يوازي فقر البيئة التي عاش بها الاعراب لان هذه اللغة كانت مرتبطة باسباب جمعها التي يعرض لها عابد الجابري في ماياتي :-

1. انقاذ لغة القران من الانحلال بسبب تفشي اللحن في المجتمع .
2. حاجة الكتاب الفرس إلى تعلم اللغة العربية ، بعد تعريب الدواوين والنتيجة كانت تحمل اللغة العربية من لغة غير علمية إلى لغة علمية⁽³⁷⁾

لكن عملية جمع اللغة اسفر عنها عائق معرفي ، تمثل في اتخاذها الاعرابي مصدر لها بعد انصراف اللغويين عن القران بسبب القراءات السبعة وهي قراءات يختلف بعضها عن بعض وعلى الرغم من ضالاه هذا الاختلاف ، فقد نتجت عنه تخريجات لغوية وهو مالم يكن يسمح به التحرز الديني ، مثلها إن صيانة القران تطلبت تحصيله من الخارج⁽³⁸⁾ وهذا يعني الركون إلى مرجعية لغوية للقران تكون على مستوى الكلمات والتعابير المجازية وليس من لغة غير لغة العصر الجاهلي تفي عندهم

³⁶ . محمد عابد الجابري ، تكوين العقل العربي ، ص 88 .

³⁷ . المرجع نفسه ، ص 80 .

³⁸ . المرجع نفسه ، ص 85 .

بالغرض وهو ما كان ممكنا الحصول عليه لدى بعض القبائل المنعزلة عن تأثيرات الحضارة في ذلك .

يستند عابد الجابري إلى حديث لابن عباس يقول فيه " إذ تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر فان الشعر عربي " وهناك رواية أخرى تنسبه لرسول الله (ص) ⁽³⁹⁾ ويعلل عابد الجابري ذلك بان الجمع بهذه الحالة لم يكن سكا إلا من الكلام المنطوق لا المكتوب والقران مكتوب .

وبالنتيجة تأثرت تلك اللغة برؤية الإعرابي المرتبطة بيئته الصحراوية ، وبالتالي اثرت تلك الرؤية على الثقافة العربية الإسلامية ، اذ ابى الإطار المرجعي للعقل العربي في عصر التدوين ألا إن يجعل اللغة العربية لغة المعاجم لقد اثر هذا المنهج المعتمد في اللغة على اصول الفقه وعلم الكلام وحصل عنه تأثير متبادل متداخل بين العلوم التي اتخذت من القران مركزا لها أو تلك التي يطلق عليها عابد الجابري المباحث البيانية والتي يؤكد انها متداخلة في التأثير والتاثر ، ففي الفقه الذي قسمه عابد الجابري : الاولي الفقه العملي ، والثاني الفقه النظري :

الأول الفقه العلمي : كان في زمن الرسول (ص) والصحابة وحتى اواخر العصر الاموي ، كان الفقه واقعيا لا نظريا ⁽⁴⁰⁾ ، وبهذا يعرض للفترة التي سبقت عصر التدوين اذ كان الناس إذا ما اشكل عليهم امر فانهم يتقاضون به ويحتكون إلى الشريعة ، إما الثاني فهو الفقه النظري ، اذ مع بداية عصر التدوين اصبح الفقه يفترض النظر والاقتراض أكثر مما يثمر من الوقائع اذ تفترض الحوادث اقتراضا مما جعل الفقه حقلًا مشتركًا تجتمع عليه الشخصيات العلمية على اختلاف انتماءاتها العقائدية والسياسية . وقد تمت تلك الابحاث على يد علماء اصول الفقه اذ جمع الاصوليون قواعد مستعاره من علوم مختلفة مما يرجع إلى فرضهم ويختص ببحثهم

³⁹ . المرجع نفسه ، ص 85 .

⁴⁰ . المرجع نفسه ، ص 98 .

فألفوه وصيروه علما . والطريقة ناضجة ذات طابع منهجي حتى أصبحت هي القواعد التي يتوسل بها لاستنباط الاحكام الشرعية من الادله الأمر الذي كان ينسبه للفقهاء كالمناطق بالنسبة للفلسفة مما إذا ((كانت مهمة الفقه هي التشريع للمجتمع فان مهمة اصول الفقه هي التشريع للعقل))⁽⁴¹⁾ . وقد جاء هذا العلم يعد إن كان الفقه ، كباحث اللغة ، تنازعة اتجاهات متعددة .

الاتجاه الأول : ((يعتمد التفسير ب (الاثر) أي ما نقل عن النبي (ص) والصحابة)) ويقابل في المباحث اللغوية اتجاه السماع الذي يعتمد على كلام الاعراب .

الاتجاه الثاني : ((ويعتمد التفسير ب (الرأي) وذلك بالاجتهاد في فهم الخطاب القرآني في ضوء احكام العقل مع التقيد بقواعد اللغة واساليب التعبير العربية والاسترشاد بظروف التنزيل)) واسبابه وهذا قريب من المباحث اللغوية التي تعتمد التنظير والقياس كأبحاث (الخليل) وهكذا كان هناك فريقان الأول يعتمد الرواية والسماع ومركزها الكوفة وبغداد والفريق الثاني يعتمد الرأي والقياس ومركزهم البصرة⁽⁴²⁾ .

ومركز العقل العربي على الإنتاج النظري (اصول الفقه) وهو ما لانجد له مثيلا في الثقافات السابقة⁽⁴³⁾ وهذا ما نلمسه في رسالة الشافعي فبعد إن تم تقنين البيان العربي على مستوى (المعنى) النحو وعلى مستوى المعنى معاجم اللغة جاء دور الشافعي وقد كان معاصر للخليل وتلميذه سيبويه (المتوفي 180 هـ) ومعا نلمس تأثير المنهج اللغوي في كتابه "الرسالة شكلا ومضمونا" وهذا يظهر التكامل بين النحو

⁴¹ . المرجع نفسه ، ص 100 .

⁴² . المرجع نفسه، ص 100-101

⁴³ . المرجع نفسه، ص 99.

والفقه والكلام على مستوى المنهج بل على مستوى التشريع للعقل⁽⁴⁴⁾، وقد رفض (الاستحسان)⁽⁴⁵⁾ لابي حنيفة ورفض (المصالح المرسله)⁽⁴⁶⁾ لمالك وارجع كل شيء للكتاب والسنة بواسطة القياس⁽⁴⁷⁾ وهذا واضح في قوله : ليس لاحد اباد إن يقول في شيء حل أو حرام إلا من جهة العلم وجهة العلم : الخبر في الكتاب والسنة أو الاجماع أو القياس⁽⁴⁸⁾

⁴⁴ . المرجع نفسه , ص103. انظر تبعا للجباري ابا البركات عبد الرحمن بن محمد بن

الانباري المتوفي سنة 577 في لمع الادلة في اصول النحو ص80.

⁴⁵ . الاستحسان, قال به الحنفية خصوصا. وقد رفضه الشافعي معتبرا اياه عملا بمطلق

الراي, أي بدون الاستناد إلى دليل شرعي. بينما يؤكد كبار الحنفية إن الاستحسان

عندهم ليس هو العمل بالراي مطلقا بل هو ترجيح قياس خفي على قياس جلي.

وبعبارة أخرى ايثار دليل على دليل يعارضه لمربع يعتمد به شرعا.

⁴⁶ . المصالح المرسله اصل اخذ به الإمام مالك أول الأمر ثم تبناه اصحاب المذاهب

الأخرى وسماه الغزالي (الاستصلاح) والمقصود به ثبات الحكم في واقعة لا نص فيها

ولا اجماع على مراعاة مصلحة مطلقة وهي التي يرد في الشرع ما يشير ألا الاخذ بها أو

تركها. انظر عابد الجباري, بنية العقل العربي , ج 2, ص112.

⁴⁷ المرجع نفسه ص110.

⁴⁸ . المرجع نفسه , ص102.

وهنا يؤكد الجابري الكيفية التي تحولت بمقتضاها هذه القواعد إلى عوائق بعد تحويلها إلى موجه ابستمولوجي تحكم بالعقل العربي لقرون طويلة ولكن مازالت اثاره العميقة قائمة إلى اليوم ، لقد وجه الشافعي العقل العربي افقيا فربط الجزء بالجزء والفرع بالاصل (القياس) وعموديا فربط اللفظ الواحد بانواع من المعاني والمعنى الواحد بانواع من الالفاظ داخل الدراسات الفقهية تماما كما هو الشأن في الدراسات اللغوية والكلامية (49) .

وفي النحو ايضا كان لهذه القواعد التي وضعها الشافعي اثر في الدراسات اللغوية فلقد كان اعتماد النحاة على اصول الفقه اعتمادا كليا وهذا ليس على المستوى المصطلحات والتقسيمات فحسب بل كان على مستوى القياس والهيكلية ايضا اذ إن ابن الانباري نجح في استنساخ الهيكل العام لاصول الفقه واقام عليها (اصول النحو) في رسالته الصغيرة (لمع الادله) ويذهب عابد الجابري في عرض التطابق بين اصول الفقه والنحو حتى يصل إلى أدلة النحو التي تستعير ذات ذات الاسماء (أدلة الفقه) وتبنى نفس قضاياها ومشاكلها نفس قضاياها ومشاكلها الايستمولوجية لكن عابد الجابري يعطي النحاة الاسبقية في استخدام القياس اذ نجد انفسنا في كلتا الحالتين مضطرين للاعتراف بالاسبقية الزمنية في ممارسة القياس ممارسة منهجية (50) .

(إما في علم الكلام) فيعرض عابد الجابري مقارنة بين علم الكلام المعتزلي واصول الفقه للشافعي حول اشتراكهما في تحديد مكانة العقل ، اذ عرض للمعتزلة من خلال عرضة لمشروع الرسمي المفكر الشيعي الزيدي ، على اعتبار تقارب المنهج بينه وبين المعتزلة معا يعني معرفة اعتزالية ، وهنا بين موقف الرسي والشافعي فانه

49. المرجع نفسه ، ص 105

50. محمد عابد الجابري ، تكوين العقل العربي ، ص 120 .

يرى إن التكامل مع الاصيل يتم هنا في علم الكلام المعتزلي ، بنفس الالية الذهنية التي يتم التعامل بها مع نفس الاصول هناك في الفقه انها الية (51) ، رد الفرع إلى الاصل أو ((الغائب المجهول)) على ((الحاضر المعلوم)) (52) .

فالمقارنة بين الاثنين الرسي والشافعي تظهر تشابها في تشريعهم لـ (العقل) لكنهما يختلفان بحسب ترتيبهما لمكان العقل فالشافعي يجعله يحتل المرتبة الرابعة والرسي يضعه في المقدمة ((فالشافعي يحدد اصول التشريع حيث المشرع الأول هو النقل اما العقل

⁵¹ . هناك بعض الاعتبارات تجعل لفظ (قياس) في علم الكلام غير لائق ولا مسوغ لهذا يقول المتكلمون الاستدلال بالشاهد على الغائب بدلا من قياس الغائب على الشاهد لاعتبارين احدهما ديني يتجنب المتكلمون استعماله لانه يفيد التشبه والثاني ايستمولوجي فالتكلمون يسمون منهجهم (استدلالا) لا مجرد قياس لانهم ينطلقون فيه من الدليل ، والدليل عندهم المرشد إلى المعرفة الغائب عن الحواس وما لا يعرف باضطرار ، وهو الذي عندهم ينصب من الامارات ويورد من الاسماء والاشارات مما يمكن التوصل به إلى معرفة ماغاب عن الضرورة والحس .

⁵² . المرجع نفسه ، ص 120 .

فليس له إلا إن يقيس ويستنبط ، فيعلل الجابري وضع المعتزلة للعقل في المقدمة لسبب ايدولوجي بقوله كانوا يرومون الدفاع عن العقيدة امام من لا يؤمن بالكتاب أو السنة (53).

من خلال هذا التحليل يبدو إن الجابري يذهب إلى القول بأن العقل مجرد وسيلة وليس غاية ((فالعقل هنا مع المعتزلة أو هناك مع الشافعي ليس إلا مجرد اداة ، فهو في جميع الاحوال يكون في خدمة النص وليس بديلا عنهما)) (54) وهذا الكلام يعني لنا إن النص هو المؤثر فيما العقل ((مجرد اداة ، فهو في جميع الاحوال في خدمة الكتاب للسنة وليس بديل عنهما)) .

بعد تحليل مكانة العقل لدى المعتزلة الذين كان لهم اثر في علم الكلام البياني فقد امتد تأثير هذا المنهج إلى الاشاعرة خصوم المعتزلة الذين استعاروا ذات المنهج وبكيفية عامة لـ (عقائد السلف) كما وضعها مؤسس المذهب . فتاثروا حتى اصبح علم الكلام الاشعري تماما كعلم الكلام المعتزلي في تبرهن قضايا الأول منهما على قضايا الثاني ف ((القسم الأول هو (دقيق الكلام) وهو ما يتفرد به العقل به أي المسلمات والنظريات التي تخص عالم الطبيعة (الشاهد) إما القسم الثاني فه (جليل الكلام) وهو ما يفزع فيه إلى كتاب الله أي العقائد الدينية التي تخص ما وراء الطبيعة (الغائب) ، فلكي يبرهن ألا شاعره على صحة ارائهم في (جليل الكلام) يلجأون كما يفعل المعتزلة إلى (دقيق الكلام) أي إلى بناء الشاهد بالشكل الذي يمكنهم من قياس الغائب عليه)) وهكذا شيدوا مذهبهم ((في

⁵³. المرجع نفسه ، ص 120.

⁵⁴. المرجع نفسه ، ص 120.

الجوهر الفرد والخلاء والاعراض والصفات والاحوال والزمان والمكان والسببية ((⁽⁵⁵⁾).

هكذا عرضنا لفكر عابد الجابري القائم على وجود عقل بياني يشكل قاعدة مشتركة بين اللغة والفقه والكلام ، التي يستقطبها النص الديني ، لتشكل طريقة في التفكير وقد عرضنا لنشأتها وتداخل التأثير فيما بينها .

يقدم لنا عابد الجابري تفكيكا لمكونات العقل البياني : اللفظ / المعنى والأصل / الفرع بوصفهما زوجين ابستمولوجيين يحكان جانب المنهج الذي يؤسس التفكير وطريقة إنتاج المعرفة في العلوم البيانية كاشفا عن معوقات التفكير في ضوء الإشكالية التي " هي منظومة من العلاقات التي تنسجها داخل فكر معين مشاكل عديدة مترابطة لا تتوفر إمكانية حلها منفردة ولا تقبل الحل من الناحية النظرية إلا في إطار حل عام يشملها جميعها "⁽⁵⁶⁾ .

ويحدد وجود وحدة الإشكالية على صعيد الموضوع إشكالية اللفظ / والمعنى وعلى صعيد المنهج إشكالية التعليل بالإضافة إلى السلطة المرجعية على صعيد تأسيس الأصول وتأصيلها وهي سلطة السلف ، وهنا يؤكد إن ثمة حقلا ونظاما معرفيا خاصا يؤسس الممارسة النظرية في هذه العلوم⁽⁵⁷⁾ . وقد أسهمت هذه الإشكالية في قبوله العقل البياني العربي وفي تحديد مرتكزاته وطريقة نشاطه ونوع علاقته باللغة وتعامله معها ، ففي إشكالية اللفظ / والمعنى نلاحظ ان مركز التوتر يكمن في العلاقة بينهما . من خلال مستويين عمودي وافقي :

المستوى الأول : العمودي وهو منطق اللغة ومشكلة الدلالة .

المستوى الثاني : الأفقي وهو نظام الخطاب ونظام العقل .

⁵⁵ . المرجع نفسه ، ص 129-133 .

(1) محمد عابد تاجابري ، نحن والتراث ، ص 39 .

(2) محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ، ص 104 .

فإذا ما استعرضنا الخطوط العامة لهذه الإشكالية (اللفظ والمعنى) نجد أنها ضمت مشكلة العرب ، أي وضع العلامات المحددة للمعنى في علم النحو ومشكلة الأوزان الصرفية ومضمونها المنطقي في علم الصرف، ومشكلة الدلالة في ارتباطها بظاهرة الاتساع في كلام العرب في الفقه ومشكلة الحكم والتشابه وحدود التأويل ومسألة الإعجاز ، واصل اللغة في علم الكلام ومشكلة (سر البلاغة) في النظم ، ثم علاقة ذلك بنظام الخطاب .

المستوى الأول العمودي ، أي تفسير الخطاب وهو يمثل المحور العمودي في مشاكل الإعراب في النحو والدلالة في الفقه وقصد المتكلم في علم الكلام وهو ما عرضه عابد الجابري في منطق اللغة ومشكلة الدلالة ففي النحو كانت النظرة البيانية تنظر " إلى اللفظ والمعنى ككيانين منفصلين " (58) ، وهذا واضح لدى الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي نظر إلى الألفاظ بوصفها ممكثات ذهنية ، فالمهمل فقط بصفة مؤقتة ، وقد وصف " المهمل بأنه كلام وان لم يوضع لشيء " (59) . وهذا واضح لدى سيبويه الذي بين في كل باب ما يليق به حتى انه احتوى المعاني والبيان ووجوه تعريفات الألفاظ في المعاني (60) . ويؤكد النتيجة آلتية بقوله : واضح إننا هنا لسنا إزاء تقرير قواعد نحوية لكيفية النطق والكتابة ، بل بإزاء تقرير جهات الكلام ومعايير التفكير ، فان الفرق بين " اللغات التي يكتب فيها الحركات مع

(3) محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ، ص 41 .

(4) المرجع نفسه ، ص 42 - 43 . انظر أبو الحسن البصري ، المعتمد في أصول الفقه ، تحقيق : محمد حميد الله ، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، 1984 ، ج1 ، ص 14 - 15 .

(5) محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ، ص 45 .

الحروف نقرأ لفهمهم ، إما في اللغة العربية فيجب إن نفهم حتى نتمكن من القراءة الصحيحة" (61)

• إما في الفقه إذا كان النحاة قد ربطوا في تفكيرهم وأبحاثهم بين منطق اللغة ومنطق العقل توجههم في ذلك إشكالية العلاقة بين اللفظ والمعنى فان علماء أصول الفقه قد عملوا على إحكام هذا الربط حينما طابقوا في أبحاثهم الأصولية بين الدلالة والاستدلال بين طرق دلالة اللفظ على المعاني وطرق تصرف العقل فيها ولقد ربطوا بين قوانين تفسير الخطاب وبين مبادئ العقل واليات نشاطه فصار عمل العقل عندهم يعني استثمار النص وهو ما سموه بالاجتهاد وصار المعقول في عرفهم هو معقول النص⁽⁶²⁾ . ومن هذه النتائج في تعقب طرق دلالة الألفاظ على المعاني أي من (المواضعة) اللغوية على مستوى الحقيقة والمجاز معا ، أنهم أهملوا مقاصد الشريعة مما أعطى الفرصة لكي يتحول النص إلى سلطة فاعلة ويكون القياس تابعا لها وهذه هي البحوث اللغوية فالبحث في دلالة النص قوامه عملية استقراء واسعة لأنواع العلاقات التي تقوم بين اللفظ والمعنى في الخطاب البياني والبحث في دلالة معقول النص وهو يدور حول محور رئيس واحد هو القياس والقياس الفقهي وهو تمديد حكم (الأصل) والذي ورد فيه نص إلى الفرع الذي لم يرد فيه نص باعتماد معقول ذلك النص نوعا من الاعتماد والنتيجة التي يصل لها في الفقه هي إن الفقهاء قد رهنوا التشريع بقيود العلاقة بين اللفظ والمعنى وكان لابد إن ينتهي ذلك بنظر عابد الجابري الى استنفاد جميعا لإمكانيات التي تبيحها اللغة وهي إمكانيات محدودة خصوصا وان اللغة المعتمدة هي " لغة العرب قبل الاختلاط ، في حين لو أسس التشريع أصلا على مقاصد الشريعة وهي مقاصد تؤسسها المصلحة العامة والمثل العليا وليس المواضعة لما انغلق باب الاجتهاد "

(6) المرجع نفسه ، ص 46

(7) المرجع نفسه ، ص 105.

إما في علم الكلام فإن الكثير من قضاياها قد احتدمت فيها الخلافات نتيجة انخراطهم في إشكالية اللفظ / والمعنى وهذا واضح في ثلاث قضايا شغلت علماء الكلام هي : خلق القرآن ومسألة التأويل والإعجاز .

فمشكلة خلق القرآن التي قالت بها المعتزلة طبقاً لنظريتهم في التوحيد من أن القرآن لا يمكن أن يكون قديماً لعدة اعتبارات :

(أ) " إن الكلام بما أنه خطاب (أو أمر وتسواه وإخبار) فهو يقتضيان يكون هناك مخاطب موجه إليه ، فالقول بقدوم الخطاب يلزم عنه القول بقدوم هذا الأخير " وهذا يقود إلى الشرك .

(ب) "الخطاب حروف وألفاظ ومعان والقول بان القرآن " غير مخلوق " قد يقضي إلى القول بقدوم حروفه وألفاظه فضلاً عن معانيه الشيء الذي يقضي مرة أخرى إلى القول بتعدد القدماء والى الشرك " (63) .

إما النظرية الأشعرية فقوامها القول " إن المقصود بكلام الله حين وصفه " بأنه غير مخلوق هو الكلام النفسي لا الألفاظ والحروف (64) . ويرى عابد الجابري إن القول أساسه ، وما يعلل هذا هو ربط القرآن بنوع من المواضع اللغوية وبالتالي فإن مشاكل الكلام الميتافيزيقية ، تفتح المجال واسعاً لتسويد اللغة على الفكر واللفظ على المعنى نظام الخطاب على نظام العقل (65) .

1- إما المسألة الثانية فهي التأويل وقد طبعت بالمواضع اللغوية فعلى الرغم من الخلافات بين المعتزلة والأشاعرة إلا أنهم كانوا جميعاً يتقيدون بالحدود التي تسمح بها وجوه البيان في التأويل ولا يتهدون بها وبذلك يبقى التأويل دائماً تأويلاً بيانياً وبالتالي فالتأويل . في الحقل البياني لم يكن يتجاوز اللغة العربية

(8) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي ، ص 64 .

(9) المرجع نفسه ، ص 64 .

(10) المرجع نفسه ، ص 63 ، 106 .

بوصفها محددًا⁶⁶ من محددات النظام المعرفي الذي يصدر عن " وبالتالي
 فان التأويل " يعني توظيف اللغة في بنية العقل " لجعله " مقننا مضبوطا " .
 لان التأويل " كان تشريعا للعقل العربي ولم يكن ، مجالا لممارسة الفعالية
 العقلية فعالية العقل الكوني المستقل بنظامه عن اللغة " (67) . ويعتمد عابد
 الجابري في تحليله على شروط التأويل لدى المعتزلة وهي المواضعة⁽⁶⁸⁾ .
 وقصد المتكلم⁽⁶⁹⁾ . والقرينة⁽⁷⁰⁾ .

إما المستوى الثاني - الأفقي :

فيتم بوضع قوانين إنتاج الخطاب وهو محور أفقي اهتم بتركيب الخطاب وصنع
 المعاني وهو ما عرضه في نظام الخطاب نظام العقل⁽⁷¹⁾ . ويعبر عابد الجابري عن
 هذا التطور في الأبحاث البيانية التي كانت بفعل النمو الذاتي " الذي سار في ذات

(11) المرجع نفسه ، ص 66 .

(12) المرجع نفسه ن ص 66 .

(13) المواضعة : وهي تعمل على تثبيت المعنى للألفاظ والعبارات . تقع على الأمور
 المشاهدة فقط وهي صفتان (أصلية وفرعية) فلا يجوز نقل لفظ من المعنى الذي
 وضع له إلى آخر إلا إذا كان هناك (قرينة) فالمواضعة لا تقتصر على المعنى الظاهر
 بل المعاني المجازية . لا يكون من وضع الفرد بل من وضع الجماعة .

(14) قصد المتكلم : وهو معرفة اضطرارية حسية إما بالسمع أو بالخبر الصحيح عنه
 معرفة قصد المتكلم يكون بالاستدلال عليه قياما على قصد المتكلم .

(15) القرينة أو الدليل او الاعلامة : وهي علامة تصحيح بالاستدلال بشاهد معين
 على غائب معين سماها المتكلم (الدليل) والفقهاء (العلة) والبلاغيو (القرينة) .
 انظر لكل من 13 و14 و15 إلى عابد الجابري ، بنية العقل الاهربي ، ص 70 .

(16) المرجع نفسه ، ص 77 .

الاتجاه الذي يطابق بين نظام اللغة ونظام العقل " (72) . وبذلك يرد على من يربط تطور الأبحاث البيانية بأثر المنطق الارسطي (73) . وهنا يرى عابد الجابري إن مناقشات الجرجاني حول اللفظ والمعنى قد توجت بالمناقشات السابقة " ومن جهة أخرى انتقل بهذه المناقشات من مستوى البحث في العلاقة العمودية بين اللفظ والمعنى إلى مستوى البحث في العلاقة الأفقية بين الألفاظ بعضها مع بعض والمعاني بعضها مع بعض ، بين نظام الألفاظ ونظام المعاني ، أو نظام الخطاب ونظام العقل هكذا عمل على تجاوز إشكالية الجاحظ وتدسين القول في إشكالية السكاكي " (74) . وهذا التجاوز يمكن ملاحظته في نظرة الجرجاني إلى (المعنى) فهو " ليس معنى الكلمة المفردة .. (إذ) لا ينطوي معناها على أية مزية بيانية وإنما المزية والفضيلة في نظره للمعنى الواحد المفهوم من مجموع الكلمات التي ينتظمها الكلام .. وهذا المعنى الواحد .. أو نظام المعنى ... يحصل بمراعاة إحكام النحو " . فنظام معاني (النحو) " ليس نظام العقل بل (إحكام النحو) ف " العقل ليس هو العقل كما يفهمه الفلاسفة أصحاب المنطق بل انه "العقل " كما يفهمه البيانيون أصحاب النحو " انه " منطق اللغة " (75) . أيان (مشروع الجرجاني) (76) جاء من البيان بوصفه نظاما معرفيا ، ولم يكن بفعل اثر خارجي (77) . وهذا واضح في نظريته

(17) المرجع نفسه ، ص 82 .

(18) المرجع نفسه ، ص 83 .

(19) محمد عابد الجابري ، البنية ، ص 83 .

(20) المرجع نفسه ، ص 86 .

(21) المرجع نفسه ، ص 86 .

(22) يرد عابد الجابري على طه حسين إذ يقول (من هنا يتبين خطأ القول بان البيان العربي قد تحول مع عبد القاهر الجرجاني من الأدب إلى الفلسفة تحت تأثير القارة الالهينية هذه القارة المزعومة التي جعلت الجرجاني حسب هذا القول فيلسوفا

إلى المعنى إذ إن "المتلقي يساهم في إنتاج المعنى المقصود بواسطة عملية استدلالية ينتقل فيها من خلال اللفظ ومعناه المتعارف عليه ، إلى المعنى الذي يقصده المتكلم ، (إلا) إن اللفظ هنا لا يعطي المعنى بل هو " دليل عليه " هنا اللفظ إمارة عليه ودليل عليه " انه بمثابة (الحد الأوسط) الذي يدونه لا يمكن الانتقال من المقدمات إلى النتائج " فالبيان لا يكون بالفكر وحده بل يكون يتوسط اللفظ نظام خطاب⁽⁷⁸⁾ . وبذلك يكون قد ارتقى بإشكالية اللفظ 0 المعنى إلى مستوى العلاقة بين نظام الخطاب ونظام العقل ومشروع السكاكي (المتوفي سنة 626 هـ .) تجاوز ليس لإشكالية اللفظ /المعنى فقط بل لنظرية (النظم) الجرجانية ذاتها أيضا وهو هنا يحدد طابعها الشمولي في النظر إلى العلوم البيانية بوصفها كلا من خلال ترابطها وتداخلها وتأثير بعضها في بعض⁽⁷⁹⁾ . إذ يرى عابد الجابري في كتاب (مفتاح العلوم) للسكاكي بمثابة (اورجانون) للدراسات البيانية ويعود إلى تأكيد استقلالية العلوم البيانية عن العلوم الارسطية ولهذا يرى إن السكاكي لم يصدر عن منطق ارسطي أبدا ولتكن علاقة السكاكي بأرسطو علاقة متأثر بمؤثر بل كانت علاقة مماثلة ، لأنه عمل على ضبط العلوم البيانية وتقنينها مثلما عمل أرسطو بالعلوم

يجيد شرح أرسطو والتعليق عليه وهذا الكلام لطفه حسين في كتابه (البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر) فيقدمة ابن جعفر نقد النثر ، بيروت ، 1980 . انظر القسم 1 ، المجلد ، هامش رقم 46 المرجع محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ، ص 81 الهامش رقم 17 من الملاحظ إن عابد الجابري هنا لا يدافع عن اصالة البيان بقدر محاولته تطبيق المنهج التاريخي وربط الفكر بالواقع الجغرافي أي البيان بالصحراء بالتالي إرجاع عوائقه إلى بيئته التي ظهر بها .

(23) المرجع نفسه ، ص 89 .

(24) المرجع نفسه ص 90.

الفلسفية⁽⁸⁰⁾ . ففي كتابه (مفتاح العلوم) يتناول علوم الخطاب الذي ضبط قوانينه التي ستتقسم إلى علوم المبنى وعلوم المعنى الأولى تتوخى ضبط نظام الخطاب والثانية تروم ضبط معناه ولما كان نظام معنى الخطاب هو ذاته نظام العقل أو ما يؤسسه نظام العقل لذا أمكن القول إن إشكالية (اللفظ - المعنى) تحولت مع السكاكي إلى النظر من خلال الزوج نظام الخطاب / نظام العقل⁽⁸¹⁾ . أصبح معه بالا مكان تحقيق التوافق بين نظام الخطاب نظام العقل⁽⁸²⁾ . وهذا ينضح في المماثلة التي يقيمها السكاكي بين الاستدلال المنطقي والأساليب البيانية العربية وإرجاعها معا غلى إلية ذهنية واحدة هي اللزوم⁽⁸³⁾

(25) المرجع نفسه ، ص 90 .

(26) المرجع نفسه ، ص 100 .

(27) المرجع نفسه ، ص 91 .

(28) المرجع نفسه ، ص 101 ، وفي هذا الصدد يقارن عابد الجابري بين أنماط القياس البياني إذ يقول : القياس المعروف بالمنطق (بالتمثيل والاستدلال بالمثال وهو نفس القياس الفقهي والكلامي . وأرسطو يقسمه إلى نوعين من الاستدلال : الاستنتاج (القياس السلوجسي) والاستقراء الأول الانتقال بالذهن من العام إلى الخاص . إما التمثيل فينتقل فيه الذهن من حالة إلى حالة تماثلها من نظير إلى نظير من جزء إلى جزء ، وكان أرسطو يرى هذا النوع من الاستدلال داخلا في الاستقراء ، وهو اضعف أنواعه كان يعتبره خطايا لأنه مجرد تشبيه . وان التمثيل والمماثلة بهذا المعنى هو القياس البياني وهو يفيد الظن فقط . إما النتيجة ليس ضرورية . ولكنه في جميع الأحوال لا يصل إلى درجة اليقين دوره خطابي وينقل عابد الجابري عن ل (درول) إن النتيجة في الاستدلال بالمماثلة تبقى دوما موضوع شك من جهة المنطق الصارم . إن أهمية هذا النوع من الاستدلال قائمة كونه وسيلة لإفهام الخصم وتوليد

والنتيجة التي يتوصل إليها عابد الجابري هي إن " نظام الخطاب هو " ما يوجب الفاعلية و المفعولية على صعيد الكلام ، إما نظام العقل فهو ما يوجب الفاعلية و المفعولية على صعيد الأشياء " نظام السببية . ف (الاهتمام بنظام الخطاب على حساب نظام العقل قد ترتب عنه ... الانشغال والاهتمام بتجنب التنافر بين الكلمات على حساب الاهتمام بتجنب التناقض بين الأفكار . ان التناقض على صعيد الفكر لا ينظر إليه في هذه الحالة ك " تناقض " بل كطريقة من طرق صياغات المعاني " .. " وفي جميع الأحوال فالتناقض على صعيد المعاني " يجد دوما حلا " في إعادة ترتيب العلاقات داخل نظام الخطاب وذلك هو " التأوويل " . فالاهتمام يتجنب التنافر بين الكلمات معناه الحرص على النعمة الموسيقية في نظام الخطاب " (84) . هذا ما خلاص إليه عابد الجابري بعد تفكيك إشكالية اللفظ / المعنى بوصفها زوجا ابستمولوجيا إما الزوج الابستمولوجي الثاني فانه بين :

(1) تأسيس الأصول .

(2) وتوظيفها.

يحدد عابد الجابري إن العقل العربي كان وما يزال عقلا فقها أي عقل تكاد تقتصر عبقريته في البحث لكل فرع عن اصل (85) . ولهذا جاء التأسيس " في الركون إلى سلطة السلف . وهو شيء مقبول ما دام الأمر يتعلق بعلوم تنطلق منذ البداية في ممارسة النظرية من منطق واحد هو بناء المعقول على المنقول " لذا فان

انطباع لديه بأنه يفهم . المرجع نفسه ، ص 376 ، انظر المرجع الذي استند إليه عابد الجابري

MD orolle Le raisonnement Pir analogic (Paris Presses University de France , 1949, p476 .

(29) المرجع نفسه ، ص 107 - 108 .

(30) المرجع نفسه ، ص 105 .

التوتر سيعتمركز في الجانب الثاني بمعنى "توظيف الأصول" وهذه هي (إشكالية التعليل) (86). إما فيما يتعلق بـ (تأسيس الأصول) فإن عابد الجابري يراها في مشروع الشافعي بوصفه أول من حدد الأصول في الفقه على الرغم من أن العمل بها كان منذ زمن الرسول (87)، إلا إن عابد الجابري يرى فرقا بين الجانب العملي زمن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والتنظير للأصول التي حددها الشافعي وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس. أنه حدد أطارا نظريا للتفكير الفقهي بضبط العلاقة بين هذه الأصول بصورة جعلت منها البنية المؤسسة للإطار المرجعي الخاص بالتفكير الفقهي. وقد "انطلق الشافعي، يصنف درجات هذا البيان/الأصل، البيان القرآني إلى:

(1) ما يحتاج إلى مزيد بيان .

(2) ما في بعضه اجمال ، بينته السنة .

(3) ما هو مجمل كله وقد بينته السنة كذلك" (88)

وهنا يحدد عابد الجابري إن العقل البياني دائما محكوم بـ (الأصل) (89) وهنا يحدد ثلاثة أصول لهذا التفكير:

(31) المرجع نفسه ، ص 170 .

(32) المرجع نفسه ، ص 110 .

(33) المرجع نفسه ، ص 111 .

(34) الأصل : شكلت إلية " الصورة " إلى الأصول أهمية في المجتمعات القديمة ، تلك الصورة " التي تتحقق بطرائق عديدة " . هذا النفوذ الذي يتمتع به الأصل ما زال باقيا في المجتمعات الأوروبية عندما يراد اعتماد شيء جديد يصر إلى فهمه أو عرضه على انه عودة إلى الأصل فالإصلاح الديني إنما ابتداء بالعودة إلى الأصل الكتاب المقدس وإحياء خبرة " الكنيسة " والثورة الفرنسية اتخذت من الرومان والإسبارطيين مثلها الأعلى والعمل على تجديد الفضائل القديمة وكان لدى مثقفو ايطاليا بالعودة إلى الأصل الروماني وهكذا في القرن التاسع عشر العودة إلى الأصل النبيل وهذا يفسر لنا

1- التفكير انطلاقاً من اصل (الاستنباط) وهو غير الاستنتاج deduction المنطقي الذي يتجه فيه التفكير من المقدمات إلى نتائج تلزم عنها ، كما هو الشأن في النظام المعرفي البرهاني⁽⁹⁰⁾ . إن الاستنباط في الحقل المعرفي البياني يعني الاستخراج : استخراج المعرفة من (اصل) . قال في لسان العرب : (استنبطه واستنبط منه علماً وفيراً ومالاً : استخرجه . والاستنباط : الاستخراج . واستنبطه الفقيه : إذا استخرج الفقه الباطن باجتهاده ، وفهمه قال الله عز وجل : " لعمله الذين يستنبطونه منهم - النساء /83 " . " وبعبارة أخرى " بذل الفقيه جهده العقلي في استنباط حكم شرعي من دليله على وجه يحس فيه العجز عن المزيد " ⁽⁹¹⁾ .

2- إما التفكير انتهاء إلى اصل : فهو عملية " عقلية " يطلق عليها (القياس) قياس فرع على اصل أو غائب على شاهد وهو غير القياس المنطقي الذي ينطلق فيه الفكر من مقدمتين أو أكثر يربط بينهما حداً وسط ليصل إلى نتيجة تلزم عنهما⁽⁹²⁾ .

3- " وإما التفكير بتوجيه من (الأصل) فيعني الصدور في عملية الاستدلال البياني عن قواعد أصولية " سماها بعض الباحثين المعاصرين بـ (قواعد التوجيه) ، وهي

أسطورة العرق الآري . وكذلك الشيوعية الماركسية قد نبنت احد الأساطير السائدة في العالم الآسيوي المتوسط الدور الاقتدائي الذي يقوم به الرجل الصالح وفي أيامنا البروليتاريا . انظر مرسيا ألباد ، مظاهر الأسطورة ، ترجمة : نهاد خياطة ، دمشق ، 1991 ، ص 170 - 171 .

(35) محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ، ص 113 .

(36) المرجع نفسه ، ص 114 .

(37) المرجع نفسه ، ص 115 .

عبارة عن (ضوابط منهجية) وضعها الأصوليين ليلتزموا بها عند النظر في الأصول التي يستنبط منها الأحكام فهي قواعد توجيه " (93) .
وانطلاقاً من هذه الأصول يرى عابد الجابري إن " مهمة الفقه هي التشريع للمجتمع " إما أصول الفقه فهي " التشريع للعقل " (94) وقد ترك الشافعي أثراً كبيراً في الفقه وأصوله وهذا يظهر في توجيهه الاستمولوجي الذي كرسه إذ وجه " العقل العربي أفقياً وإلى ربط الجزء بالجزء والفرع بالأصل (القياس) وعمودياً إلى ربط اللفظ الواحد بأنواع من المعاني والمعنى الواحد بأنواع من الألفاظ داخل الدراسات الفقهية " مثل الدراسات اللغوية والكلامية وهكذا يكون " الاجتهاد هو أساساً الاجتهاد في فهم النص الديني داخل مجالته التداولي . فالحلول يجب البحث عنها داخل النص وبوساطته ، والقياس ليس هو الرأي بإطلاق بل هو ما طلب بالدلائل على موافقة الخبر المتقدم من الكتاب والسنة " (95) . هذا ما يخص لغة النص - القرآن .

إما السلطة الثانية وهي النص - الحديث فهو (الحديث) وهو الآخر بنظر عابد الجابري يطرح مشكلة استمولوجية هي نفسها التي طرحها (الخبر) في الحقل المعرفي البياني وليست مشكلة الصدق والكذب ، بالمعنى المنطقي كما في الحقل المعرفي البرهاني بل مشكلة الصحة (96) والوضع لهذا صنف البيانيون الخبر

(38) المرجع نفسه ، ص 115 .

(39) محمد عابد الجابري ، تكوين العقل العربي ، ص 105 .

(40) محمد عابد الجابري ، تكوين العقل العربي ، ص 105 .

(41) أي دراسة السند وأتباع الطرق التي تنتهي إلى الوثوق بصدور الخبر أو عدم صدوره وهينوعان (1) دراسة السند وتدور حول صحة أو خطأ نسبة النص إلى قائله (2) دراسة المتن وتدور حول معرفة مدلول النص ومضمونه . انظر عبد الهادي

ألفظلي، مبادئ اصول الفقه ، ط3 ، النجف ، 1386 هـ ، ص 18 - 23 .

المتواتر⁽⁹⁷⁾ . وخبر الآحاد⁽⁹⁸⁾ . وخبر التواتر يحمل معه سلطة الجماعة التي يستحيل اتفاق أفرادها على الكذب لكونهم من أفاق مختلفة لهذا ركز العلماء على (خبر الآحاد) وتبيان الصحيح متغير الصحيح والتجريح وهذا هو علم الإسناد فالعلم الذي يفيد خبر التواتر هو علم ضروري وهو بعيد عن طائفة المناقشة لهذا يضعونه في أعلى مراتب الاعتقاد أي في مرتبة المعارف الضرورية التي مصدرها الحس والآليات العقلية التي يحددها ابن وهب الكاتب فهي ما ظهر منها مقدمات طبيعية أو مقدمات ظاهرة في العقل ، أي خلقية . وبالتالي فشرط خبر التواتر هي إن يقدم على العلم وان يستند إلى المحسوس ولقد توافرت هذه الشروط لعدة أجيال منها الجيل الذي نقله إلينا (العدد) أي عدد الناقلين إذا كان لا بد منه لحصول التواتر⁽⁹⁹⁾ وشروط العدد الذي اختلف فيه العلماء فيلتمس الغزالي مخرجا للعدد الكامل فيقول :ليس من الضروري إن يكون عدد الناقلين للخبر الذي يحصل بهم العدد الكامل الذي يفيد العلم بل يجوز إن يختلف باختلاف الوقائع والأشخاص والقرائن ويذهب إلى ابعده من ذلك فيقول أن العلم قد يحصل بقول رجل واحد إذا توفرت قرائن كافية⁽¹⁰⁰⁾ .

(42) خبر التواتر : وهو ما يرويه في كل جيل منذ عصر الرسول الصادر عنه حتى عصر العمل به والرجوع إليه من قبل المسلمين الذين يستحيل اتفاقهم على الكذب في نسبة إلى الرسول ، انظر المرجع نفسه ، ص 19 .

(43) خبر الآحاد : وهو كل خبر لم يبلغ في روايته حد الخبر المتواتر ولم يقترن بما يفيد القطع بصدوره عن الرسول ، عبد الهادي الافضلي ، المرجع نفسه ، ص 20 .

(44) محمد عابد الجابري ، ببنية العقل العربي ، ص 36 . انظر : أبو الحسن البصري ، المعتمد في أصول الفقه ، ج 2 ، ص 558 .

(45) المرجع نفسه ، ص 121 . انظر : الغزالي ، المستصفى من علم الأصول ، ج 2 ، ص 135 .

وتعدد القرائن يقوم مقام تعدد⁽¹⁰¹⁾ الناقلين ،أي انه لغرض تجاوز إشكال (العدد الكامل) ويرد (العلم الضروري) الذي يفيد التواتر إلى عامل سيكولوجي وتساءل عابد الجابري : لكن هل يكفي هذا من ناحية فقهية ، ف (مشكلة " خبر التواتر " في الميدان الفقهي هو انه يقتصر إلى ما يؤسسه تجريبيا "⁽¹⁰²⁾ . صحيح إن العوامل السيكولوجية ، " تؤثر في النفس تأثيرا لا ينكر "⁽¹⁰³⁾ .إلا انه لا احد من الفقهاء ولا ممن يتخذون (التواتر موصلا ل (العلم) يقبل تأسيس هذا (العلم) على مجرد (عوامل سيكولوجية) لأنهم يجعلون خبر التواتر من العلوم الضرورية التي لا تستطيع النفس انفكاكا عنها مثلها انك لا تستطيع رفع صورة الشجر عن عينيك وأنت تبصرها . وهنا يرى عابد الجابري إن الاعتبارات السيكولوجية التي ذكرها الغزالي لا تؤسس خبر التواتر بل تنسف نظرية الخبر البيانية نفا والعوامل السيكولوجية تقوم على الظن وهذا لا يمكن إن يكون شرطا لصحة خبر التواتر كعلم

إما (خبر الآحاد) فيقول به ابن وهب الكاتب : " والمعرفة الحاصلة (منه) تقوم على التصديق وليس على اليقين " وهي ملزمة في الأمور العملية من الدين كالعبادات والمعاملات ، وغير ملزمة في الاعتقاد "⁽¹⁰⁴⁾ . وهذا الخبر في نظر الباقلاني " لا يوجب العلم ولكن يوجب العمل إذا كان ناقله عدلا ولم يعارضه ما هو أقوى منه "⁽¹⁰⁵⁾ . والذي يراه الغزالي ضجيجا ذهبته إليه جماهير من سلف

(46) المرجع نفسه ، ص 121 .

(47) المرجع نفسه ، ص 121 .

(48) المرجع نفسه ، ص 122 .

(49) محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ، ص 36 .

(50) المرجع نفسه ، ص 124 . انظر : محمد بن الطيبالباقلاني ، تحقيق :الأب تشرذ

يوسف مكاوئي ، المكتبة الشرقية ، بيروت ، 1957 ، ج 1 ، ص 164 .

الأمة والصحابة والتابعين والفقهاء والمتكلمين⁽¹⁰⁶⁾ . ويمضي عابد الجابري في تحليل الأصول ليصل إلى إن القاعدة الاستمولوجية التي تؤسس (خبر التواتر) و (خبر الآحاد) هي سلطة السلف والإجماع والصحابة .

إما السلطة الثالثة بعد القرآن والحديث هي سلطة الإجماع التي يقدم عابد الجابري تحليلاً لها من خلال الكشف عن العلاقات المكونة لها فالاجتماع احد الأصول الأربعة والسلطة التي يتمتع بها هذا الركن لا يمكن الشريعة " إن تأسس تأسيساً أصولياً بدون القول بـ (الإجماع) ولهذا لم يتردد كثير من الفقهاء معتزة وإشاعة ، في الحكم بالكفر على منكر (الإجماع) " ⁽¹⁰⁷⁾ . لأنه أعظم أصول الدين لذا فالإجماع غير قابل للنسخ فاتفق المجتهدين في عصر ما على حكم شرعي ينتج عنه عدم جواز الإجماع في عصر من العصور اللاحقة على حكم نقيض له لأنه في ذلك مخالفة بينة⁽¹⁰⁸⁾ . وهذا يتوقف على السلطة المعرفية التي يتمتع بها عصر الصحابة قال " (مالك) (إن إجماع أهل المدينة وحده حجة) ، وقال " الغزالي بان المدينة لم تجمع (جميع العلماء لا قبل الهجرة ولا بعدها بل ما زالوا متفرقين في الإسفار والغزوات والأمصار " ⁽¹⁰⁹⁾

لهذا يتمسك بقول الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) (لا تجتمع أمتي على الخطأ) وهذا الحديث ليس بالتواتر كالكتاب وهو ما يعزوه إلى تقرير الدليل لذا اشترط في صحة الإجماع انقراض أهل العصر الذي اجمعوا وهذا ما ظهر في " الإجماع السكوتي " ، ولذلك بان " يقول احد المجتهدين برأي في مسألة ويسكت الباحثون

(51) المرجع نفسه ، ص 127 ، الغزالي ، الامستصفر من علوم الاصول ، ص

. 149

(52) المرجع نفسه ، ص 127 .

(53) المرجع نفسه ، ص 127 .

(54) المرجع نفسه ، ص 128 .

فلا يعترضون عليه " ، وهنا يتوصل عابد الجابري إلى القول بان السلطة التي تؤسس النظر في مسألة الإجماع هي (سلطة السلف) ، أي سلطة العصور السابقة على العصور اللاحقة ، أي الماضي على الحاضر⁽¹¹⁰⁾ . سلطة العادة التي يقول عنها الغزالي " والعادة اصل يستفاد منها معارف " فان بها يعلم بطلان دعوى معارضة القرآن واندراسها⁽¹¹¹⁾ . وهكذا كان الماضي يمثل سلطة السلف ليس في الفقه فقط بل أيضا في النحو اذ تبني النحاة جميعا الهيكل الصوري لعلم الأصول إذ يجعل (ابن جني) سلطة الجماعة - جماعة النحاة - ملزمة في كل الأحوال وعدم جواز مخالفة النحويين وهذه السلطة غير مبررة وكأنها من بديهيات العقل⁽¹¹²⁾ . وهي سلطة السلف التي تعبر عن ترابط وضع سياسي وثقافي معا مثلا في استبداد الحكم والسلف بالمعرفة⁽¹¹³⁾ .

إما السلطة الرابعة فهي (القياس) في الأصول السابقة وكانت تمثل الجانب الأول وجسدت حلها في الركون إلى سلطة السلف في العلوم منذ البداية في ممارستها النظرية من منطق واحد هو بناء المعقول على المنقول إما الجانب الثاني وهو توظيف الأصول فيتمحور حول العلاقة بين الأصل والفرع التي تعرفنا عليها في إشكالية التعليل⁽¹¹⁴⁾ . وهي من الناحية البنيوية طرفان وواسطة (اصل وفرع وعلّة) . استقطبت العقل البياني في القياس أي قياس الفرع على الأصل أو الغائب على الشاهد فينوع من التبرير لربط معنى معين دون غيره من المعاني ويستند في ذلك

(55) المرجع نفسه ، ص 129.

(56) محمد عابد الجابري ، البنية والعقل العربي ، ص 1321 .

(57) المرجع نفسه ، ص 126 . انظر (أبو الفتح عثمان بن جني) ، الخصائص

، تحرير : محمد علي النجار ، ط 2 ، القاهرة ، 1952 ، -1956 ، ح 1 ، ص 185.

(58) المرجع نفسه ، ص 135 .

(59) المرجع نفسه ، ص 137 .

إلى علامة يسميها قرينة يجدها في النص إما على مستوى المنطوق في قرينة لفظية وإما على مستوى معقولة في (قرينة عقلية) وكذلك يفعل المجتهد ويسميها علة أو دليلاً يجدها في الأصل . ويظن ظناً قوياً أنها هي المبررة لحكمه ويعتقد اعتقاداً جازماً أنها الموجبة لذلك الحكم . وهذا يعود إلى مفردة قياس لغة وتعني قياس الشيء يقيمه قيماً وقياساً وقبسه إذا قدره على مثاله وهذا يظهر من خلال البيان الذي هو ظاهر وإيضاح⁽¹¹⁵⁾ . والقياس البياني تمييزاً له عن القياس المنطقي الارسطي استخراج نتيجة تلزم ضرورة عن مقدمتين أو أكثر بل يعني إضافة أمر إلى أمر آخر (بنوع من المساواة) انه ليس عملية جمع وتأليف بل عملية مقاسة ومقاربة⁽¹¹⁶⁾ . يعهد منها إلى حكم موجود ليصل إلى تطبيقه على شيء آخر غير موجود⁽¹¹⁷⁾ أي يعتمد على ربط طرفين وواسطة يمد حكم الأصل إلى الفرع . على ما يجده هو من شبه يبرر القياس⁽¹¹⁸⁾ . وهذا (ظن القائل) يجد علة الحكم مشتركة بين الحكم السابق الأصل والحكم الجديد الفرع وظن المجتهد ليس ظناً اعتبارياً بل هو قناعة من خلال وجود قرائن وعلامات وأيضاً مبدأ كل مجتهد مصيب في الحكم الذي ليس فيه نص شرعي إلا أنها لا تخلو من حكم سابق يتبع الظن⁽¹¹⁹⁾ . وساعتها لا يعدو القياس سوى " تحصيل حكم الأصل في الفرع " سواء لدى النحاة أو الفقهاء لأنه تعليل على الجواز لا على الوجوب وتوظيف لا يتعدى المقاربة⁽¹²⁰⁾ . لان العلة غير مصرح بها إنما يلتصها إذا كان هناك إمارات

(60) المرجع نفسه ، ص 138 .

(61) المرجع نفسه ، ص 138 .

(62) المرجع نفسه ، ص 138 .

(63) المرجع نفسه ، ص 139 .

(64) المرجع نفسه ، ص 140 .

(65) المرجع نفسه ، ص 171 .

أو أدلة يتخذها مرشدة إلى المطلوب فهو إذن ترجيح لا علاقة له بالضرورة المنطقية⁽¹²¹⁾. وهنا يوضح عابد الجابري موقفه من هذه القواعد الاستمولوجية التي عمل على تحليلها وكشفها بوصفها سلطات معرفية إذ يصف الاستدلال في العلوم البيانية بأنه واقع تحت وطأة إشكالية واحدة هي تبرير الأحكام⁽¹²²⁾. ونقطة التوتر واقعة حول العلاقة بين الأصل والفرع أي إشكالية التعليل⁽¹²³⁾ الذي يقوم على الجواز لا على الوجوب فوظيفته لا تتعدى المقاربة إلى ما يعتبره علة الحكم الشرعي وهو أصلا مقصود الشارع لأنه لا طاقة للبشر على معرفة المقاصد الآلهة. والإيجاب إنما هو إيجاب لغوي وهذه الإشكالية تقوم انطلاقا من اللغة.

إما الإشكالية المغاربية التي تقوم على فكر المقاصد التي تعود إلى ابن رشد وقد وظفها ألساطبي في الأصول إذ دعا إلى الوجوب بناء الأول على المقاصد الشرع بدل بنائها على ألفاظ النصوص الدينية¹²⁴

تحتل الرؤية مثلها المنهج أهمية كبيرة في طرح عابد الجابري الذي يعتمد المزاجية بين النظرة التاريخية التي تتبع الصيرورة وتعمل جاهدة على ربطها بالواقع للكشف عن العوامل الفاعلة فيها فبعد الكشف الذي قدمه عابد الجابري للسلطات المعرفية والمنهج الفاعل في العلوم البيانية يقدم تحليلا للرؤية البيانية المؤثرة في المنهج إذ هي التي تؤسس المنهج⁽¹²⁵⁾. وان البحث عن تلك المبادئ المؤثرة فيها تدفعه إلى البحث عن أصول تلك الرؤية وبالتالي عن "جينالوجيا" البيان بوصفها نظاما

(66) المرجع نفسه، ص 172 .

(67) المرجع نفسه ، ص 173 .

(68) المرجع نفسه ، ص 170 .

(69) المرجع نفسه ، ص 540 .

(70) محمد عابد الجابري، البنية والعقل العربي ، ص 239 .

معرفيا أي عن الأصول المؤسسة له ، يعمل على الحفر في تلك الأصول التي تشد إليها الصورة (العالمة) للبيان رؤية (عالمة) تقوم على مبادئ هي أولا انه " ليس ثمة في الوجود غير الجواهر والأعراض " . وثانيا إن الجوهر لا تنفك عنه الأعراض وثالثا " الأعراض لا تبقى زمانين " (126) . وهذه الرؤية محكمة بمبادئ هي " مبدأ الانفصال ومبدأ التجويز " تركزها نظرية الجوهر الفرد التي تنص على " إن العلاقة بين الجوهر الفرد التي تتألف منها الأجسام والأفعال والحساسات وكل شيء في هذا العالم هي علاقة تقوم على مجرد تجاوز وليس على الاحتكاك أو التداخل ... والعلاقة هي علاقة اختزان وليس علاقة تأثير" (127) . وهذا يعني إن انعدام التأثير لا يكون إلا بين مختلفات مما لا يترك مجالا للسببية فالجواهر القردة لا تتغير بل تبقى متماثلة مادامت موجودة (128) . لهذا قال المتكلمون ، بفكرة الطبع والتأثر بالطبع لإثبات إن الله هو الفاعل يخلق الأشياء خلقا مستمرا وبهذا تلغي السببية تماما ، وعندما يتوقف عن الخلق يعدم الجوهر لان العالم يتألف من أجزاء قابلة لان يحيط بها علم الله لأنها متناهية عند الجزء الذي لا يتجزأ ضمت عددا محدودا من الأجزاء الحادثة والحوادث لا بد لهم من محدث (129) . وهنا يتساءل لماذا اختار البيانون جانب الحدوث (دليل الحدوث) دون جانب النظام (دليل النظام ، العناية) الذي يجعل الإنسان يرى ما في العالم من اتصال (130) وهنا يربط هذه الرؤية بأصولها أي يرجع إلى السلطة المرجعية الأولى وراء تلك الرؤية وهي سلطة اللغة العربية بماهي ليست مجرد حامل

(71) المرجع نفسه ، ص 207 .

(72) المرجع نفسه ، ص 239 .

(73) المرجع نفسه ، ص 193 .

(74) المرجع نفسه ، ص 181 .

(75) المرجع نفسه ، ص 240 .

لثقافة⁽¹³¹⁾ . وان اللغة ترتبط بالبيئة التي جمعت منها وصورتها وهو ما يعدوه بيئة الإعرابي الجغرافية الاجتماعية والفكرية التي تشكل الانفصال الطابع الرئيس فيها لأنها طبيعي رملية . والعلاقات فيها هي علاقات مجاورة لا تداخل أي علاقة قرابة "في مجتمع رعوي وهي علاقة انفصل إما الاتصال فهو من خصائص مجتمع المدينة ومن مميزات البيئة البحرية لان الاتصال هو من خصائص أمواج البحر وليس من خصائص قطرات الغيث في الصحراء .⁽¹³²⁾ .

ومن هنا كانت الرؤية البيانية للمكان والزمان فالمكان اذ لا وجود له في الحقل الدلالي للغة العربية قبل ازدهار علم الكلام معنى أو معاني محددة لـ (المكان)⁽¹³³⁾ . بل كل ما هناك تصورات لا تتجاوز مستوى الحدس الحسي الابتدائي الذي يربط المكان بالمتمكن فيه فالمكان في لسان العرب هو موضع لكيونة الشيء فيه . تقول العرب كن مكانك وقم مكانك واقعد مكانك وهكذا فالمكان والموضع المحل كلها بمعنى واحد ، وليس فيما جمعه اللغويون عن عرب الجاهلية وصادر الإسلام ما يدل على انه كان لهم حدس للمكان بوصفه أطارا مجردا تنتظم فيه الأشياء يكون (وعاء) بل المكان عندهم هو دوما مكان الشيء لا ينفك عن المتمكن فيه على صعيد التصور⁽¹³⁴⁾ .

(76) المرجع نفسه ، ص 241 .

(77) المرجع نفسه ، ص 241 - 242 .

(78) بالنسبة لفكرة المكان وتطورها الفلسفي بالزمان والجسم وغير ذلك ، انظر : د .

حسن مجيد العبيدي ، انظر المكان عند ابن سينا ، ط1 ، بغداد ، 1987 .

(79) محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ، ص 242 ص .

إما الزمان أيضا يقف عند حدود الحدس الشخصي الذي يربط الزمان⁽¹³⁵⁾ بالمقترن به وقد احتفظ المتكلمون بهذا التصور للمكان والزمان المبني على الحدس الشخصي للمكان والتممكن فيه والزمان المتزمن فيه أقاموا عليهما نظريتهم في الجوهر الفرد ، وهي تعكس اثر البيئة في تشكيل الوعي لدى الإعرابي أي الممارسة الفكرية لدى العرب في الجاهلية ويرى عابد الجابري هذه البيئة الاستدلالية تتكون من طرفين وواسطة وهذا لهو صلة ب (التشبيه) لدى الإعرابي وهي بنية القياس نفسها لان آلية التشبيه هي إليه القياس نفسها⁽¹³⁶⁾ .

ومثلها أكد الفقهاء على طابع المقاربة في القياس من حيث إن اللغة الفقهية إنما تفيد الظن بوصفها علامة كذلك نظر البلاغيون ومن هنا يحدد وظيفة الاستدلال البياني في كونها تعتمد المقاربة بين الأشياء بهدف البيان والإظهار⁽¹³⁷⁾ . ويحدد هذا الاستدلال في العلوم العربية الجاهلية (قبل الإسلام) ويكون بذلك قد حدد زمن نشأة هذه العلوم أي حدد أصولها المعرفية.

(80) المرجع نفسه ، ص 188 .

(81) المرجع نفسه ، ص 243 .

(82) المرجع نفسه ، ص 242 - 245 .